



الفصل الثامن

ابن طباطبا العلوي وعملية الإبداع الشعري

هو أبو الحسن محمد بن طباطبا العلوي المتوفى سنة (٣٢٢هـ)، شاعر نهج منهج المحدثين في شعره ، وناقد مجيد ، أكثر مؤلفاته تدور في موضوع الشعر وصنعه ، تحدث في كتابه (عيار الشعر) عن موضوعات عديدة تخص صنعة الشعر أبرزها وحدة القصيدة العربية وبنائها ، والقضية التي تحدث عنها من خلال تناوله البحث في عملية الخلق والإبداع الشعري ، وبين الخطوات التي يمر بها الشاعر لينظم قصيدة جيدة ، وفي ضوء ذلك قسم ابن طباطبا العلوي مراحل نظم القصيدة الى ما يأتي :

- ١- مرحلة كونها فكرة نثرية مجردة في ذهن الشاعر.
- ٢- مرحلة تشكيل الفكرة النثرية بقوالب الشعر وألفاظه وقوافيه وأوزانه.
- ٣- مرحلة التسلسل في الأبيات وتلاحم موضوعات القصيدة بواسطة جسور لفظية.
- ٤- مرحلة التهذيب وإعادة النظر في القصيدة.

مراحل نظم القصيدة عند ابن طباطبا :

أولاً- مرحلة كون القصيدة فكرة نثرية:

يرى ابن طباطبا أن أول مرحلة من مراحل ابداع القصيدة هي كونها (اي القصيدة) فكرة تجول في خاطر الشاعر نثرا ، يقول: ((فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرا)) ، فالعقل في نظر ابن طباطبا يبدأ مع العملية الشعرية منذ الخطوة الأولى ، ويصاحبها حتى استوائها قصيدة كاملة ، فنظم القصيدة لا يرد عفو خاطر ، ولا في لحظة إلهام لا صلة للوعي بها ، أو لا سيطرة للعقل عليها وهو من أوائل من نبه الى هذا الضرب من الخلق الشعري وهو وليد تجربته الشعرية.

وهنا أخذ على ابن طباطبا في انه لا يعترف بالإلهام في خلق القصيدة ، فالقارئ له يدرك من أول لحظة ان عملية الخلق الشعري التي يبحث عنها إنما هي عملية خلق صناعي .

ثانيا- نظم الأفكار النثرية بقوالب شعرية :

فهو لا يفترض في هذه المرحلة تكون القصيدة مرة واحدة ، تنتال فيها المعاني على الشاعر انثيالاً ، يجعل الأبيات متسلسلة منسجمة مع بعضها من اللحظة الأولى ، بل كل ما عليه هو نظم الفكرة ببيت من

الشعر يشغل به احد القوافي ، من غير تفكير بتنسيق المعاني أو ترابط الأبيات ، وإذا ملأ الحيز الذي وضعه لقوافي القصيدة كيفما اتفق ، له أن ينتقل الى المرحلة الثالثة .

ثالثا - مرحلة تسلسل وتلاحم الأبيات في القصيدة :

وهي المرحلة التي يوفر فيه الشاعر للقصيدة وحدتها الموضوعية ، وفيها يخطو الشاعر خطوة أخرى ، حيث استطاع ان ينظم المعنى الذي دار في ذهنه نثرا، ووضعه في قوالب القصيدة التي اختارها ، فانظم في أبيات متفرقة يجمعها وزن واحد ، وقافية واحدة ، ولكنها تفتقد التنظيم والترتيب ، فهي أبيات كثيرة لكنها غير مترابطة ، نظم الشاعر فيها كل ما أراده من معان ، فيعمد على اعادة ترتيبها ، فيضع البيت بعد البيت، ويقدم البيت على الآخر ، وقد يحتاج في هذه المرحلة ، الى نظم أبيات أخرى ليست لها علاقة مباشرة بالمعنى الذي قامت عليه القصيدة ، ولكنها ضرورية لربط معاني أبيات القصيدة بترابط وثيق ، يقول ابن طباطبا : ((فإذا اكتملت له المعاني ، وكثرت الأبيات ، وفق بينها بأبيات تكون نظاما لها ، وسلكا جامعا لما تشئت منها)) .

رابعا - مرحلة التهذيب وإعادة النظر في القصيدة :

بعد أن تتخذ القصيدة شكلها العام ، يقوم الشاعر بإعادة النظر فيها ، متأملا ألفاظها وقوافيها ، فيغير اللفظة المستكرهه الثقيلة ، ويبدلها باللفظة السهلة النقية ، ويعيد النظر في القوافي لتكون ملائمة لمعاني الشاعر .

محنة الشعراء المحدثين وعملية الإبداع الشعري :

شغلت عملية الإبداع الشعري ، وصنع القصيدة العربية فكاربن طباطبا النقدي فألف كتابه (عيار الشعر) لتيسير سبل نجاح هذه العملية ، فقد لاحظ ابن طباطبا ان الشاعر المحدث في زمانه ، يعيش بمحنة أساسها ان الشعر القديم كان يعد المثل الشعري الأعلى في أذهان الناس وكل ما يأتي به الشاعر المحدث كان يقارن بالشعر القديم وسرعان ما كان يتلاشى ضوء المحدث إزاء بريق القديم وجمال معانيه وأساليبه، لقد حاول ابن طباطبا ان يحدد أسباب هذه الأزمة التي يعاني منها الشعراء المحدثون ، وحاول أيضا ان يبحث السبل التي تأخذ بأيدي الشعراء المحدثين للخروج من هذه الأزمة ، وابرز مظاهر هذه المحنة الآتي :

- ١- الشعور باستيفاء المعاني من قبل الاقدمين : فالشعراء المحدثون أحسوا أن القدماء قد استوفوا الحديث في المعاني، وتداولوها بصور واخلية جميلة ، لم تترك مجالاً للشاعر المحدث ان يضيف أو يبدع أكثر مما أبدعه القدماء.
- ٢- صدق الدافع في قول الشعر : فالشاعر القديم كان أكثر صدقا من المحدث، وان دوافعه على القول كانت منبعثة من صدق موقفه وإحساسه ، أمام الشعراء المحدثين وما فرضته السلطة - التي يتوجه الشاعر إليها - من قيود على أغراضه الشعرية التي يمدح بها رجالها ، أو يهجوا أعداءها أو يرثي من مات ممن يمثلها.
- ٣- بعد الشعراء المحدثين عن الأصالة العربية في قول الشعر: كون أشعارهم صادرة عن تكلف ومعاناة في قول الشعر.

وبعد ان بين ابن طباطبا أسباب معاناة الشاعر المحدث في نظمه لأشعاره ، حاول ان يرسم خطوطا عامة تخرجه من هذه الأزمة وهي :

أولاً- بالنسبة لمعالجة السبب الأول : اقترح ابن طباطبا ان يترىث الشاعر المحدث في إعلان القصيدة ، وإظهارها ودعا الى تجويدها وإعادة النظر فيها ، حتى يتأكد من سلامتها ، ودعا أيضا الى ان يعيد الشاعر المحدث النظر في الشعر القديم لتكون بين يديه وفي ذهنه مواد جيدة أصيلة ، يعرف منها متى شاء نظم القصيدة ، وينصح - على سبيل المثال - باستثمار معاني السابقين على الوجه الآتي : ان يستخدم الشاعر المحدث معاني الشعراء القدامى في غرض غير الغرض الذي أوردها فيه ، وان يأخذ معاني النثر الجيد وان يصوغها في الأشعار .

ثانيا : أما بالنسبة لمعالجة السبب الثاني : فقد حاول دفع الشاعر المحدث الى ان يكون صادقا في تعبيره من خلال صدق الواقع المراد تصويره .

ثالثا : أما معالجة السبب الثالث من المحنة: فهو كون الشعراء المحدثين يصرون في أشعارهم عن تكلف بخلاف القدماء الذين يصرون إشعارهم عن طبع سليقة شعرية سلمت ، فقد نصح ابن طباطبا الشاعر المحدث بالآتي :

- ١- ان يحترز من الأبيات المتفاوتة النسيج والصياغة ، إي المستكرهة الألفاظ ، القبيحة العبارة.
- ٢- ان يحترز من الإغراق في المعاني، إي الخروج بالمعاني الى حد المستحيل أو الممتنع الوقوع.
- ٣- ان يحترز من افتتاح القصائد بما يتطير منه الممدوح.